الرسول وكان فى نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار ، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته ، لا للطعام ولا للشراب فقط ، بل للإقامة أيضاً.

ثم حدث الملحظ العجيب ، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى ، فقد يحب أن يمتع صاحبه من هذه النعم ، إلا المرأة ، فالزوج يغار على نسائه. لكن الأنصارى من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنتين ، يقول للمهاجر : لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك. فانظر إلى زوجتيَّ ، فأيهما تعجبك أطلقها وتتزوجها بعد انقضاء عدتها ، هذا هو الملحظ العجيب ، وهى مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربى أبداً.

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش ، ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل ، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن فالذى صنع لكم كل ذلك حقيق أن يُذكر فلا ينسى وأن يشكر دائما.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

والخيانة مقابلها الأمانة ، والأمانة هى الشىء يستودعه واحد عند آخر بدون

وثيقة عليه، ولا شهود. بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة، إن شاء أقر بها وإن شاء أنكرها؛ لأن الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهود. ولا عليها «كمبيالة»، وغير محكومة بأي شيء إلا بذمة من ائتُمن، والحق سبحانه تعالى يقول:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكل الأجناس التي في الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد، كلها مُسخرة، ولا تملك الاختيار في أن تفعل أولا تفعل. الشمس ليس لها اختيار في أن تقول: سأشرق اليوم على هؤلاء الناس، أو لن أشرق اليوم. والهواء لا يملك إرادة الاختيار، كل الكائنات التي أوجدها الله في هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر. ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار، لكن الإنسان قال: أنا لي عقل يختار بين البديلات وأقبل تحمل الأمانة وسوف أؤدي كل مطلوبات الأمانة لأني أقدر على الاختيار.

لكن الإنسان ادّعى لنفسه القدرة على أداء الأمانة. وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها، وهو لا يعلم بأي شيء حكم ذلك الحكم على أمر غيبي مستقبلي.

صحيح أنه ساعة التحمل كان في نيته أن يؤدي الأمانة، لكن ماذا عن ساعة الأداء؟. وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغيار معك، فقد يأتي لك ظرف تضطر أن تبدد فيه الأمانة؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول: ابعد عني أمانة الاختيار، لأني لا أعلم ماذا ستفعل بي الأغيار لحظة الأداء. وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل التسخير، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة

وأنه سيؤديها. ووصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

« ظلوماً » لنفسه لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس في يده. و « جهولاً » لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء . فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار.

ويقول الحق عز وجل هنا :

﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

وكثير من التصرفات السلوكية للإنسان تكون مستترة عن أعين الخلق ؛ لأن أعين الخلق حين ترى جريمة ما ، فهى تستدعى رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم ، لكن ماذا عن الجرائم المستترة ؟.

نحن نعلم أن كل جريمة تطفو وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مختفية ؛ لأن الذى يقتل إنما يخفى جرائم أخرى ؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص ، وإن كان لا يملك نقوداً فقد يسرق ليشترى السلاح ، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته فى القتل ، وكل ذلك جرائم مستترة ، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتى بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجريمة الظاهرة ، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط ، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية ، أما عين الدين فتختلف ، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب ؛ لأن الدين أمانة وضعها الحق - الذى خلق الخلق - فى ضمير الإنسان. فإياك أن تخون الأمانة فى الأمور السرية التى لا يعرفها أحد سوى الله ؛ لأن الأمور التى يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس ،

بخلاف الأمور الباطنة وهى المهمة ؛ لأنها هى التى تسيطر على إيجاد السلوك .

فإياك أن تخون الله والرسول، وتخون الأمانة التى وضعت لك. ولا حجة لك - فى ذلك - إلا اختيارك. إن شئت فعلت وإن شئت تركت، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التى بينه وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من ضميره على الأعمال الباطنة قد ينحرف؛ لأن كل جريمة ظاهرة إنما تتم بتبييت أمر باطن.

ومادمت قد آمنت بالله تعالى ربًا بمحض اختيارك، فالتزم بالأشياء التى جاء لك بها من آمنت به، وأنت تعلم : أن الإيمان هو علة كل تكليف، ، وعلى سبيل المثال؛ أنت تصلى خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك؛ تصلى فى الصبح ركعتين، وفى الظهر أربع ركعات، وفى العصر أربع ركعات، وثلاث ركعات فى المغرب، وأربع ركعات فى العشاء؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه وتعالى أمرك بذلك. وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه منافع لك، فهذا موضوع آخر، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به، وهكذا تكون علة كل حكم هى الإيمان بمن حكم بهذا الحكم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

وما الخيانة ؟. إن مادة الخيانة كلها الانتقاص؛ وضده التمام، والكمال، والوفاء. ويقابل كل ذلك الاختيان والغدر. فإذا كان الله يقول لنا : لا تخونوا الله والرسول، فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة، بل خاطب رسولاً اصطفاه من خلقه وأيده بمعجزة. وكل بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول.

﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

فلا تخن الله فيما جاء فى القرآن، وجاء من الرسول المفوَّض من الله بأن يشرع. وتشريع الرسول واتباعه جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلله أمانة فيما نص عليها قرآناً، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول بأن يشرع ، فإن أطعت هذا الرسول ، فقد أطعت الله.

وعرفنا أن الاختيانَ هو الانتقاص ، ومعنى الانتقاص هو الوقوف بعيداً عن الكمال والإتمام المطلوب. والإنسان حين آمن يصبح للإيمان فى النفس أمانة. فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله ، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألاَّ تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من اتباع منهج الله تعالى. وهذه هى أمانة الشهادة ، أما أمانة الرسالة فهى الحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة.

إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان فى أنه لا إله إلا الله ، وإياك أن تعتقد فى أن أحدا يمكنه أن يتصرف فيك ، أو يملك لك ضراً أو نفعاً ، أو أن مصالحك ممكن أن تقضى بعيداً عن الله ، فكل شيء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله ، وإياك أن تفهم أن حكماً يجيء لك عن غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول.

والقمة فى الأمانة هى إيمان بالله ، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة ، وأمانتها هى أداؤها من غير نقص فى شىء سواء كان عاماً أو خاصاً ، ولو فى الحديث يجرى أمامك ، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شىء ، مثل أمانة أى مجلس توجد فيه ، فلا يحق لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم ، فوشى واش بهمام بن عبدالله السلولى إلى زياد ، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام ؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن ، لكن الله ألهم همّاماً كلمة ظلت دستوراً يطبق ، وحين استدعى زياد هماماً ، قال زياد : بلغنى أنك هجوتنى. قال همام : كلا أصلحك الله. ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل. فقال : إن هذا الرجل - وأخرج الرجل من الخباء - أخبرنى . فنظر همام إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً ، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال : أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت ، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت - رجعت - من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم ، أى إما أنك خائن أو آثم ، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسى فأنت خائن ، وإن كنت اختلقتها علىّ فأنت كاذب ، فأعجب زياد هذا المنطق ، وأقصى الواشى ولم يتقبل منه. ويقال إنه خلع على همام الصلة والعطايا. فكان همام حين يرى الواشى يقول له : هل لك فى وشاية أخرى تغنينى ؟!!

وفى سيرته صلى الله عليه وسلم وقائع حدثت فى تاريخه حتى من بعض الصحابة ، وعلى سبيل المثال : نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، جعل عهداً بينه وبين اليهود ، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد ، فلما خالفوا هم العهد ؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم ، فأدبهم ، وكان أول ذلك فى بنى النضير وأوضح لهم أنه لن يقتلهم ، بل سيكتفى بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام. ثم حدثت خيانة من بنى قريظة ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن. فبعثوا

إلى رسول الله من يقول : يا رسول الله إن بنى قريظة يريدون ان تصنع بهم ما صنعته مع بنى النضير ، أى أن بنى قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام ، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ ، وكان يحب بنى قريظة وبينه وبينهم صلة ، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة ، وهذه كُنْيته ، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر ، وكان ماله فى يد اليهود يتاجرون له فيه ، أى أن بينه وبينهم صلةً مالية.

ذهب أبو لبابة إلى اليهود ، فاسْتَشاروه فى الأمر متسائلين : أنرضى بحكم سعد بن معاذ ؟ فماذا قال أبو لبابة ؟ قال : إنه الذبح ، وأشار إلى حلقومه ، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماى حتى تيقنت أنى خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن انظروا إلى الإيمان ، ويقين الإيمان ، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا ، والنظر إلى أن افتضاح الإنسان فى الدنيا أمر هين بالنسبة لافتضاحه فى الآخرة .

ذهب إلى سارية المسجد - أى عمود فى وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس ، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده ، وظل لا يَطْعَم ولا يَشْرَب سبعة أيام ، حتى خارت قواه وغشى عليه وسقط ، فعطف الله عليه ، وأبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه. فقالوا له : حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذى ربطت نفسك ، فقال : والله لا أحلها حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية.

لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه ؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه قال لليهود إنه الذبح.

وهناك صحابى آخر هو حاطب بن أبى بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستر مقدمه حتى تفاجأ قريش. وتكون المفاجأة سبباً فى عدم تولد اللدد وليتم الصلح. لذلك كتم الأمر، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمه الله أن حاطبا قد أرسل إلى قريش يخبرها. فانتدب علياً ومعه صحابيان وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدَّده لهم فى الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة، فقال لها الإمام علىّ: أخرجى ما معك، فقالت: ليس معى شىء. فمسك علىّ بن أبى طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذى تخبىء فيه أشياءها، فوجد رسالة تحذير لقريش، وعاد علىّ - كرّم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطبا: ما حملك على هذا يا حاطب؟

قال: والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرك فى شىء، وأن الله ناصرك.. ناصرك، ولكنى أردت أن أتخذ لى يداً عند قريش، لأننى رجل ضعيف ولا مال لى ولا أهل.

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول. ولكنْ عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذى آمنت به يعتبر خيانة للأمانة.

﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

أى لا تخونوا الله والرسول فى المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون، أى ألا يخون أحدكم قومه عن عمد، ويؤخذ من هذا القول ثبوت

المغفرة فى حالة الخطأ والنسيان، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم، وله فضل عظيم، لا يأخذك بالسهو، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم، ولو لم يكن متديناً، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو : أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك ؟. وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة. فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تتقبله، فعليك ألا تفعله، لأنه مناف لهذه الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها، وعلى سبيل المثال : إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضى أن يسرق، والمعتدى على العرض، لو تخيل أن هناك من يعتدى على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة فى النفس. وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك. أتحب أن يخونك أحد فى حديث أو فى أمانة ؟ لا ؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر، بل من طرفك أنت.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى : « وأنتم تعلمون » أى متعمدون، غير ناسين أو ساهين، أو جاء الأمر كفلتة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون، ففى ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهى عن ذلك فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

ونلحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضاً جماعة، وأنت حين تُفصِّل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أنَّ على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم. فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن العلاقة واضحة ؛ لأن خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع فى النفس ، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك ، ومثال ذلك : أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك ، وقد لا يكفى دخلك لمطالبهم ، فهل يعنى ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها واحد عندك ؟ لا .

هل يعنى ذلك أن تخون فى البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما ؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنياً ؟. لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ؛ المال والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تذم ولا تمدح إلا بنتيجتها ؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت فى الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب فى ذلك الاختبار المبين فى تلك الآية الكريمة.

والمتتبعون لأسرار الأداء القرآنى يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟. ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه. وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد. ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجىء الزوج يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتى الحق بالأموال أولاً ثم يأتى بذكر الأولاد.

وأساليب القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع بألوان مختلفة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة آل عمران »

وفى هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين. ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة. وعلينا أن ننتبه أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطير المقنطرة، وهى تأتى بعد تحقيق الشهوة الأولى ؛ وهى النساء، والزينة الثانية وهى الأبناء، ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع فى المزيد من المال، فإن كانت الوحدة من القناطير المقنطرة هى القنطار، فمعنى ذلك أن الإنسان الذى يملك قنطاراً إنما يطمع فى الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه فى أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه، وهكذا . إذن فالقناطير المقنطرة تعنى الرغبة فى المبالغة فى الغنى.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« من الآية ٢٨ سورة الأنفال »

ويقول فى آية ثانية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾

« من الآية ١٤ سورة التغابن »

وفى هذا القـول نجد أن العـداوة تأتى من الأزواج قـبل الأولاد، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء، وهذا كلام منطقى؛ لأن الذى يتكلم هو رب حكيم.

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾.

وفى هذا القـول تحذير واضح : إياكم أن ترسبوا فى هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائن للأمانه، وهذا له عقاب، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى فى آخر هذه الآية بما يحبب إلينا النجاح فى الاختبار فيقول سبحانه :

﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾.

ونعلم أن النفس البشرية مولعة بحكم تكوينها الفطرى من الله بحب النفع لنفسها، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع؛ وعمر هذا النفع؛ لأن الذى يسرق إنما يريد أن ينفع نفسه بجهد غيره، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن ينفع نفسه ليبارك الله له فى المال وأن يعطيه الرزق الحلال. وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجاباً أم سلباً،

والمثال الذى أضربه دائماً لذلك هو الطالب الذى يهمل فى دروسه، ويوقظه أهله كل صباح بصعوبة، ثم يخرج من المنزل ليتسكع فى الشوارع، والطالب الثانى الذى استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وانكب على دروسه، إنَّ كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه، الفاشل أراد النفع الأحمق، والناجح أراد النفع فى المستقبل. ونعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس. والمهم هو قيمة النفع، وعمر النفع. فإذا كانت الخيانة ستؤدى لك نفعاً فى أولادك أو أموالك؛ فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل، وضع هذه فى كفة، وضع تلك فى الكفة الأخرى، وانظر أى كفة ترجح، ولابد أن ترجح كفة الأجر عند الله عز وجل.

ولذلك قال المتنبى :

أرى كلنا يبغى الحياةَ لنفسه

حريصاً عليها مستهاماً بها صبّاً

فحُبُّ الجبانِ النفسَ أورَدَه التقى

وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أورَدَه الحَرْبَا

فكلنا نحب الحياة؛ الجبان الخائف من الحرب يحب الحياة، والشجاع الذى يحب نفسه ويعلم قيمتها عند خالقها يخوض الحرب رغبة فى حياة الاستشهاد، وهى حياة عند الله إلى أن تقوم الساعة، ثم تتلوها حياة الجنة حيث يخلد فيها أبداً.

إذن فالمعيار الذى نقيس به النفع هو محل الاختلاف.

وفى عرف البشر نجد أن الأجر يساوى قيمة العمل، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط، بل هو عظيم بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان، ثم يضع شرطاً هو : « إن تتقوا الله »، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاناً، ويكفر عنا السيئات، ويغفر لنا وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم.

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاما بالأحكام؛ وقمة الالتزام بالأحكام هى الإيمان بالله عز وجل، وإذا وجد الاثنان؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام، لابد أن يتحقق وعد الله المتمثل فى قوله تعالى :

﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩سورة الأنفال)

والفرقان من مادة « فرق » « الفاء والراء والقاف »، وتأتى دائماً للفصل بين شيئين؛ مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْق كالطود العظيم. وسبحانه و تعالى يقول :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة البقرة)

أى نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير .

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوباً من قماش مُتَساو فى النسيج واللون، ثم شققت من الثوب جزءاً منه؛ هنا لا يقال إنكَ فرقتّ بين القطعتين، بل فصلت بينهما، لكن لا يقال فرُق إلا إذا كان الفصل يؤدى إلى فرقتين؛ فرقة هنا، وفرقةهناك وهذه لها أشياء ومتعلقات، وتلك لها أشياء ومتعلقات.

إذن فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط، بل هو فصل يؤدى إلى أن يكون لكل فرقة منهج، ومذهب، ورأى.

و « يجعل لكم فرقانا » أى يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة، لكن لأنهما مختلفان لذلك لابد من وجود تناقض بينهما. وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقاناً، مثال ذلك، هناك من يهتدى، وهناك من يضل. وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال. فالله شرح صدر المهتدى للإسلام، وجعل صدر

الكافر شيئا حرجا؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر، وخديعة؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلىء صدره بالضغينة، فالمؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر؛ لأنهم كلهم خلفاء لله فى الأرض، وكلهم مخلوقون لله، وكلهم متمتعون بخيرات الله؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاندة.

والتفرق - كما نعلم - إنما ينشأ عن اشتباك؛ بين فريقين اثنين، واحد منهما يمثل فريق الهدى، والثانى هو من حق عليه عذاب الله.

﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويتمثل الفرقان فى هدى القلب، والبصيرة والعلم؛ وأى شىء يفصل بين الحق والباطل، وأحوال الإنسان - كما نعلم - قسمان: أحوال الدنيا، وأحوال الآخرة، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستترة، وفيها أمور ظاهرة، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسة، ومنها القلبى الذى لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب. والفرقان فى أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى، ومن ضل؛ ونجد أن المهتدى قد شرح ربنا صدره للإسلام. ونجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدى يعيش ضمن الفريق الذى لا غل فيه ولا حقد، والضال هو من يعيش فى فريق يتصف

بالغل والحقد، هذا فى الأمور القلبية. أما فى الأعمال الظاهرة، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالنصر، والغلبة، والعزة.

وماذا عن الفرقان فى الآخرة ؟.

إن الحق يجعل الفرقان فى الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم، ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وإذا كنا سنتقى الله فهل سيكون لنا سيئات ؟.

وأقول : إن أردت بقوله: « إن تتقوا الله » إيماناً به، فسبحانه يُكَفِّر عنكم سيئاتكم؛ صغائرها وكبائرها. ولا يضر مع الإيمان معصية، بل تدخل فى عفو الله وغفرانه.

وإن أردت بالتقوى « التزام أمر » فتكفير السيئات يعنى أن نتقى الله بترك الكبائر فيكفر عنا السيئات وهى الصغائر. والتكفير على نوعين؛ أولا أن يسترها عليك فى الدنيا، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة، ولذلك يقول سبحانه فى ختام جميل للآية :

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم، فمعنى ذلك أنَّ هناك فَضْلاً أقل من عظيم، كما أن هناك فَضْلاً يعلوه تميزاً. نعم، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر؛ هذا يتفضل على هذا بطعام، أو يتفضل عليه بِمَلْبس، أو يتفضل عليه

بشراب، أو يتفضل عليه بمسكن، أى أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل، لكنهالا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من المخبز، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن، ووراءه من زرع وحصد.

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله عز وجل، وهذا هو الفضل العظيم. وأيضاً نجد أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً، مثل كمال الذات، وأنه يود الحمد والثناء، ويبغى راحة نفس إنسانية، ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم، لا لأنهم يطبقون منهج الله، بل يرغبون فى مجرد راحة النفس، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس، فهم يفعلونها وليس فى بالهم الله، بل فى بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن فالذى يتفضل إنما يريد شيئاً، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أن يكمله. فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل، ألله نقص فى كمال ؟!!لا. إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة فى كمال أو ثناء، وأيضاً فكل فضل من دون الله يتضمّن المنّ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذلة لأحد. وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئا من إنسان آخر. لكن من الذى يستنكف على فضل الله ؟ . لا أحد. لأنَّ الحياة كلها هبة منه، ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التى قالت لمعن بن زائدة :

فَعُـــدْ إنَّ الكريَم له معـــاد

وظنّى بابْنِ أروى أن يعـــودا

وكانت الفتاة تطالب ابن زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم، فنهرها أبوها، فقالت له : يا أبى إن الملوك لا يُستَحَى من الطلب منهم .

﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنتبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك فى الحياة ومظاهر استبقاء حياتك، ومظاهر نعيمك كلها، إن نسبتها فستصل إلى الله، فإن كنت تشترى - على سبيل المثال - أثاثاً لبيتك، واختَرت خَشَب الورد ليكون هو الخشب الذى يصنع لك منه النجار هذا الأثاث، فأنت تأتى بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً؛ لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب، وكل شىء فى حياتك إن سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهى عند خلق لله وهبه للإنسان، وهذا هو الفضل العظيم من الله تبارك وتعالى.

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخونوا الله، ولا تخونوا الرسول، ولا تخونوا أماناتكم، من أجل أولادكم أو أزواجكم، واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى، واذكروا واقع الدنيا معكم، أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق ؟ لقد صدقت كلها، كما قال الحق سبحانه وتعالى من قبل :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين ، فماذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ . هنا يقول المولى سبحانه :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر في جانب النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يقل له: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا ؛ لكنه في جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال: واذكروا إذ أنتم قليل ، فما السبب ؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى ؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾

(سورة الغاشية)

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان في حياة المؤمنين ؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم . لذلك جاء هنا بالظرف فقط .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا كله شرط وحيثية لقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

والمكر هو التَّبْييت بشيء خفيّ يضرّ بالخَصْم . والذي يمكر ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه ، لا يملك قدرة على المواجهة ، فيبيت من ورائه ، ولو كانت عنده

قدرة على المواجهة فلن يمكر ؛لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ومادام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربى يقول :

وضعيفة فإذا أصابَتْ فرصةً

قَتَلتْ كذلك قُدْرَةُ الضُّعفاء

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية ؛لذلك يندفع إلى قتل خصمه . أمَّا القوى فهو يثق فى نفسه وقدراته ولذلك يعطى خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

أى يذكرون الكيد والتبييت لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد يقدرون على المكر لمن هم فى مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت فى حفظه ورعايته .

إذن فلست وحدك لأنك تأوى إلى الله ، ويكشف الله لك كل مكرهم ، وهذا المكر والتبييت مكشوف ومفضوح من الله ؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

والمكر منهم له وسائل وغايات ، هم يمكرون ليثبتوك ، ويمكرون ليقتلوك ، ويمكرون ليخرجوك . وكل لقطة من الثلاثة لها سبب . فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه ؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حدّاً لهذه المسألة ، فاجتمعوا فى دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليهم أعرابى فوجدهم يتشاورون ؛ وقالوا لنثبته ، والتثبيت ضد الحركة ، وقوله : «ليثبتوك» أى ليقيدوا حركتك فى الدعوة ؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم . ولولا الرسالة ، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله ، فقد كنت فى نظرهم الصادق والأمين ، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى فى الأرض ، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم .

والتقييد إما أن يكون بأن تمنع المتحرك عن الحركة ، وإمّا أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته . إذن فالتثبيت يكون بالقيد أو السجن ، وقيل لهم : إن هذا رأى غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم ، أو يحتالون ليفكوا عنه القيد أو السجن ، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا ، وقال آخر : نخرجه من بلادنا ، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً ، وقالوا : إنه إن خرج ، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً ، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا ، وأشار الأعرابى بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كبار قريش قالوا : نخاف من

قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا فتى جلداً قوياً ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو فى فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه فى القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهى هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبييت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقاً وصدقاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقول الحق : « ءاياتنا » يعنى آيات القرآن ؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التى تلفت إلى وجود المكوِّن الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإما أن تكون الآيات بمعنى المعجزات :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾

(من الآية ٢٠٣ سورة الأعراف)

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التى هى قسط من القرآن وهو المنهج .